عبد الرزاق الكاشاني

وإسهامه في تطوير المعجمية العربية

د. علي القاسمي

١. تقديم:

تشتمل (المصطلحية) الحديثة على مجالين معرفيين:

أولهما، علم المصطلح Terminology الذي يُعنى بدراسة العلاقة بين المفاهيم Concepts والمصطلحات Terms التي تعبّر عنها،

وثانيهما، صناعة المصطلح Terminography والتي تهدف إلى جمع المصطلحات، وترتيبها، وتوثيقها، وإخراجها في معاجم ورقية أو إلكترونية.

وهذا ما اتفق عليه الباحثون في ميدان المصطلحية الحديثة، والتي أخذت ملامحها تتبلور في أوربا منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين.

وقد حدد المهندس واللغوي النمساوي يوجين فوستر (توفي عام ١٩٧٧م)، في أطروحته التي قدمها إلى جامعة برلين عام ١٩٣٠ بعنوان (التنميط الدولي للغة العلمية)، طبيعة المصطلحية الحديثة بوصفها علما موضوعيا يدرس العلاقة بين المفاهيم والمصطلحات التي تعبّر عنها، انطلاقا من

المفاهيم. ولهذا فإن البحث المصطلحي لا يتقيد بلغة طبيعية معينة وإنما يتم عبر اللغات أو ما يمكن تسميته ببحث بين- لغوي.

وتسعى المصطلحية الحديثة إلى تنميط المصطلحات Standardization أي وضعها على نمط واحد ذي معايير وقواعد محددة، بحيث يُعبِّر المصطلح الواحد عن مفهوم واحد ولا يُعبَّر عن المفهوم الواحد بأكثر من مصطلح واحد. وهذا يستلزم التخلص من الاشتراك اللفظي ومن الترادف (أو شبه الترادف) اللذين تحفل بهما اللغة العامية، بشرط أن يُراعى الشيوع والاستعمال الفعلي للمصطلحات من قبل أهل الاختصاص. وبذلك تتوفر لدينا لغة علمية خاصة تتسم بالدقة والأمانة(١) .

ويتم تعريف المفاهيم بطريقتين أساسيتين: إما بتحديد المفهوم بالنص على خصائصه الجوهرية (الجنس والفصل، المعروفين في علم المنطق)، وإما بتحديد موقعه في مجموعة المفاهيم التي تنتمي إلى علم واحد من العلوم، ويُطلق على هذه المجموعة من المفاهيم والعلاقات القائمة، بين أفرادها اسم «المنظومة المفهومية» System of Concepts. وهكذا يسهل علينا إدراك المفهوم عن طريق معرفة المفاهيم المجاورة له والعلاقات التي تربطه بها.

وينسى كثير من الذين يؤرخون لعلم المصطلح أن هذه الأسس العلمية والطرائق الموضوعية التي تقوم عليها المصطلحية الحديثة، وتطبيقاتها في المعاجم المختصة، كانت معروفة شائعة في المصطلحية العربية منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. فقد كان اللغويون العرب الأوائل يرتحلون إلى البادية ويشافهون الأعراب ويسجلون لغتهم، ويصنفون مفرداتها حسب أجناسها أو

موضوعاتها في معاجم مختصة تتناول الإنسان، والحيوان (من خيل وإبل وطير وحشرات وغيرها)، والنبات، وأدوات الحرب، وما إلى ذلك. واضطلع بهذا العمل كثير من أئمة اللغة كالكسائي (ت ٢٠٠هـ)، والنضر بن شميل (ت ٢٠٤ هـ)، وقطرب (ت ٢٠٦هـ)، وأبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ)، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ)، وكثير غيرهم[٢].

وقد حققت المصطلحية العربية تقدما كبيرا في الفترات التاريخية اللاحقة، يعود الفضل فيه إلى عدد من الروّاد نخص اليوم بالذكر منهم عبد الرزاق الكاشاني الذي صنّف ثلاثة معاجم مختصة في اصطلاحات الصوفية واتبع ثلاث طرائق متباينة في ترتيب المصطلحات وتعريفها.

٢. عبد الرزاق الكاشاني

١.٢.اسمه:

يعترينا الخجل حين نضطر إلى الاعتراف بعدم معرفتنا حتى الشيء القليل عن حياة هذا الرجل الذي أغنى المكتبة العربية بعدد من الأعمال المصطلحية والمعجمية الرائعة. فنحن لا نعرف اسمه بالضبط، ولا نعرف تاريخ ولادته ولا مكانها، ولا نعرف تاريخ وفاته على وجه الدقة، ولا نُلم بشيء يشفي الغليل من أخباره.

كل ما اتفق عليه الباحثون الذين نسخوا كتبه أو ترجموا له أو حققوا بعض مؤلفاته أن اسمه عبد الرزاق وأن شهرته الكاشي أو الكاشاني أو القاشاني. وكاشان (أو قاشان) التي ينتسب إليها، هي مدينة في وسط إيران وتقع جنوب غربي طهران.

ومما يزيد الطين بلّة أن الناس في تلك الفترة التي عاش فيها عبد الرزاق الكاشاني كانوا يحملون لقبا وكنية إضافة إلى الاسم. وهكذا تذكر بعض المصادر أن لقبه «كمال الدين» وكنيته «أبو الغنائم» وأن اسم أبيه أحمد ولقبه «جمال الدين» وكنيته «أبو الفضائل»، في حين أن مصادر أخرى تقول إن لقبه هو «جمال الدين» وإن لقب أبيه «كمال الدين» ، وإن كنية أبيه «أبو الغنائم». وتقول بعض المصادر الأخرى أن الرجل كان يُعرف باسم «ملا عبد الرزاق الكاشاني». ولا تضيف كلمة «مُلا» شيئا جديدا، فكل ما تعنيه باللغة الفارسية هو اشتغال حامل هذا اللقب بالفقه.

ولعلنا نطمئن للتسمية التي ركّبها أحد الذين حققوا مؤلفاته آخذاً بالكثرة الغالبة من المصادر فقال: «هو أبو الغنائم، كمال الدين، عبد الرزاق ابن أبي الفضائل، جمال الدين محمد، الكاشاني، المعروف بملا عبد الرزاق الكاشاني»[٣].

وكما اختلف الباحثون في اسمه فقد اختلفوا كذلك في تاريخ وفاته. فقد ذكر بعضهم أنه توفي عام ٧٢٠ هـ، وقال بعضهم الآخر عام ٧٣٠ ، ورجّح بعضهم عام ٧٣٥. ولكن نسخا من كتبه المخطوطة تشير إلى أنه انتهى من تأليفها سنة ٧٣٥، ولهذا أصبح عام ٧٣٦ /١٣٣٥ هو التاريخ المفترض لوفاته. وأكدت بعض المصادر أنه توفي ودفن في مدينة شيراز الإيرانية في عام ٧٣٦ هـ/١٣٣٥ م[٤].

ويبدو أن علة هذا الارتباك في تسمية الكاشاني نابعة من أن الرجل لم يكن يذكر اسمه في مقدمة كتبه ولا في خواتيمها، تواضعا منه على الأرجح.

وعلى الرغم من إدراكنا . نحن المشتغلين في مجال المعاجم والمصطلحات . أهمية الأسماء ودقتها، فإننا ندرك كذلك أن ما هو أهم من الاسم استفادتنا من المعلومات التي خلّفها لنا الرجل ومن الطرائق التي ابتكرها وطورها في تعريف الأسماء والمصطلحات.

٢.٢.حياته وعصره:

نستطيع أن نستخلص بعض المعلومات مما تبقى من مؤلفاته. فقد كان من شيوخ الصوفية، ومن كبار اللغويين والمصطلحيين، ومن أعيان المفسرين. وعاش بين القرنين السابع والثامن الهجريين في عصر السلطان أبي سعيد بن درخان المغولي المتوفى سنة ٧٣٦ هـ. ونفترض أنه أمضى معظم حياته في إيران، مع العلم أن المتصوفين في زمانه كانوا مولعين بالرحلة في طلب العلم. وقد تتلمذ الكاشاني على كتب الشيخ ابن عربي. وكان مريدا للشيخ نور الدين عبد الصمد القطنزي (ت ٦٩٩هـ)، وصحب الشيخ نور الدين عبد الرحمن الإسفراييني. وقد جرت بين الكاشاني ومتصوف معاصر له هو الشيخ علاء الدين السمناني (ت ٧٣٦ هـ كذلك) مراسلات حول مذهب وحدة الوجود الذي يؤمن به الكاشاني وينكره السمناني[٥].

وكان عصره يتسم بالاضطراب السياسي والاجتماعي، والتوترات الاقتصادية، والحروب العالمية الشاملة. إذ كان الصليبيون الأوربيون قد شنوا حملاتهم المتتالية على العالم الإسلامي من الغرب واستولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩/٤٩٣، وذبحوا المسلمين، والمسيحيين من غير مذهبهم، في بيت المقدس، وأقاموا لهم ممالك في مدن الشام الساحلية. وكان المغول التتر قد

اجتاحوا العالم الإسلامي من الشرق فسيطروا على إيران كلها عام ١٢٣١/٦٢٨، ثم زحف قائد المغول هولاكو بجيشه إلى بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية واحتلها سنة ١٢٥٨/٦٥٦، ودمّر أحياءها، وأحرق معالمها، وقتل كثيرا من أهلها، وذبح الخليفة وعياله، وألقى الجنود التتر بجثث القتلى والكتب في نهر دجلة حتى اصطبغت مياهه، كما قيل، واستمر القتل في أهالي بغداد أربعة وثلاثين يوما، حتى بلغ عدد القتلى، في تقدير بعض المؤرخين، ألف ألف وثلاث مئة ألف نسمة(٦).

وقد خلّف سقوط بغداد شعورا لدى جميع المسلمين بالفاجعة والخسارة، لمكانتها الروحية والسياسية والحضارية. وانعكست مشاعر الحزن في قصائد الشعراء الذين لم يرثوا هذه المرة شخصا من الأشخاص وإنما رثوا مدينة بكاملها بل حضارة برمتها. ومن أولئك الشعراء تقي الدين إسماعيل التنوخي الذي رثى بغداد بقصيدة مطلعها:

لسائل الدمع عن بغداد أخبارُ فما وقوفكَ والأحباب قد ساروا؟
يا زائرين إلى الزوراء لا تفِدوا فما بذاك الحمى والدارِ ديّارُ

وفي هذا الجو السياسي الاجتماعي المضطرب، انتشرت الاتجاهات الفكرية المتباينة، والنزعات الدينية المختلفة، وانتعش التصوف، وكثرت الربط التي يسكنها المتصوفة، وشاعت القصص التي تتحدث عن المنامات والكرامات، خاصة أن ثلاثة من أقطاب التصوف كانوا قد برزوا في العراق في الفترة التي سبقت حياة الكاشاني، وهم: الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ١١٦٥/٥٦١)، والشيخ أحمد الرفاعي (ت ١١٨٢/٥٧٨)، والشيخ عمر

السهروردي (ت ٦٣٢/١٢٤٣)، إضافة إلى ظهور الشيخ محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨/١٢٤٠) في المغرب الأقصى وارتحاله إلى المشرق ووفاته في دمشق. ويعدّ الكاشاني ابنَ عربي شيخه على الرغم من أنه لم يتتلمذ عليه مباشرة فقد توفي ابن عربي قبل وفاة الكاشاني بمئة عام تقريبا.

وانتفت في ذلك الجو المضطرب ظروف البحث العلمي الأصيل، وتدنت الحركة الثقافية، وخمدت جذوة الإبداع، لأن الابتكار والثقافة يتطلبان قدراً من الأمن والاستقرار وشيئاً من يسر الحال. ولهذا نجد أن الباحثين المبدعين كانوا قلة نادرة، وأن أغلب المؤلفين اقتصروا على شرح أمهات الكتب السابقة، أو تدوين الهوامش عليها، أو اختصارها، أو إعادة ترتيبها، أو فهرستها، أو إضافة ذيل لها، أو نظمها شعرا لتيسير حفظها على التلاميذ.

وقد عاش عبد الرزاق الكاشاني في ذلك العصر المضطرب، ولكنه كان من جملة المبدعين النادرين. واعتنى بدراسات التصوف التي كانت تلقى رواجا وإقبالا، ولها رصيد من أمهات الكتب التي تزخر بالمصطلحات التي تحتاج إلى من يشرحها وييسر فهمها على الدارسين. فانبرى الكاشاني لهذه المهمة الكأداء.

٣.٢. مؤلفاته:

وكما وقع الاختلاف في اسمه وتاريخ وفاته، وقع كذلك في مؤلفاته، فنُسبت إليه بعض الكتب عن طريق الخطأ، أو بسبب الخلط بينه وبين الكاشاني السمرقندي (ت ٨٨٧). ونُسبت بعض كتبه إلى غيره، فقد نُسب في (كشف الظنون) أحد كتب الكاشاني إلى سعد الدين الفرغاني[٧].

وندرج فيما يلي قائمة بمؤلفات الكاشاني المعروفة حتى الآن:

١. شرح كتاب منازل السائرين للهروي الحنبلي (مطبوع)

٢. شرح كتاب فصوص الحكم لابن عربي، وأتمه سنة ٧٢٠ هـ، (وقد طبع في مصر، وفي إيران).

٣. تأويلات القرآن ، في التفسير الصوفي للقرآن الكريم.

٤. اصطلاحات الصوفية، وهو معجم لشرح المصطلحات الصوفية التي وردت في الكتب الثلاثة الأولى. مطبوع عدة مرات. وله شرح لعبد الرحيم بن شمس الدين التبريزي الأقطابي.

٥. كشف الوجوه الغر في معاني نظم الدُّر ، في شرح تائية ابن الفارض. (مطبوع)

٦. السراج الوهاج، في تفسير القرآن الكريم باللغة الفارسية.

٧. رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، وهو معجم لشرح المصطلحات الصوفية. (مطبوع)

٨ . رسالة في القضاء والقدر ، ترجمها إلى الفرنسية St Guyard ونشرها في مجلة JAS VIII: t.

٩. لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، وهو معجم موسوعي لشرح المصطلحات الصوفية.

١٠. حقائق التأويل ودقائق التنزيل. ويحتمل أن يكون هذا عنوانا آخر

لكتاب (تأويلات القرآن).

١١. الرسالة السرمدية حول مصطلح الخلود.

١٢. حلية الأبدال، رسالة في التصوف.

١٣. رسالة في الفتوة.. ولها نظير باللغة الفارسية.

١٤. رسالة في بيان الحقيقة، مع شرحها.

١٥. شرح رسالة كميل بن زيادة " الرسالة الكميلية".

١٦. شرح كتاب مواقع النجوم لابن عربي.

١٧. التذكرة الصاحبية

١٨. رسالة في الحب

١٩. الشجرة الطيبة

٢٠. قصيدة شعر

٢١. تأويلات (بسم الله الرحمن الرحيم)، مع حاشية للقصيري (ت ٧٥١/١٣٥٠).

٢٢. تذكية الأرواح عن مواقع الإفلاح.

٢٣. الرسالة النورية، في تأويل آية (الله نور السماوات) على نهج التصوف.

٢٤. الدرر الفريدة. ذكره الكاشاني ولم يُعثر عليه حتى الآن.

٢٥. مسائل ميتافيزيقية من جميع أعماله (مخطوط، ربما جمعه أحدهم).

٢٦. كتب كلامية أشار إليها بقوله: انظر في كتبنا الكلامية. (غير معروفة).

٣. الكاشاني المصطلحي:

وبإلقاء نظرة على قائمة مؤلفات الكاشاني، نستطيع تحديد مجال تخصصه. فهو صوفيّ، مفسّر، مصطلحيّ، معجميّ. فقد صنّف ثلاثة معاجم متخصصة في المصطلحات الصوفية، وكان يجيد اللغتين العربية والفارسية ويكتب بهما. ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: لماذا ألّف الكاشاني ثلاثة معاجم في المصطلحات الصوفية، ولم يكتفِ بمعجم واحد؟ هل يكمن الفرق بين هذه المعاجم في عدد المصطلحات التي يشتمل عليها كل واحد منها؟ أم لأن كل واحد منها يتناول جانبا مختلفا من جوانب التصوف أو مدرسة من مدارسه؟ أم لأنه يوجد اختلاف في المنهجية المتبعة في كل منها؟ وبعبارة أخرى: هل الفرق بين هذه المعاجم الثلاثة كمي أم نوعي أم منهجي؟

وتتضح لنا الإجابة عن هذه الأسئلة عند إلقاء نظرة على المعاجم الثلاثة واحدا واحدا.

٣.١. المعجم الأول: *اصطلاحات الصوفية*:

حاز هذا المعجم إعجاب الباحثين في التصوف، فكثرت طبعاته، فقد حققه عدد من الباحثين، كل على حدة، وأصدروه في نشرات متعددة، وهم: سبرنجر، والدكتور عبد الخالق محمود، والدكتور محمد كمال جعفر، والدكتور

عبد العال شاهين، والأستاذ موفق فوزي الجر. وكان المحققون الثلاثة الأوائل قد نشروا القسم الأول منه فقط ، إما لعدم اهتدائهم للقسم الثاني من الكتاب وإما لأسباب أخرى، أما المحققان الأخيران فقد تمكنا من إصدار الكتاب كاملا[٨].

ويحدد الكاشاني في مقدمة هذا المعجم الغرض من تأليفه كما يحدد مصادره فيقول:

«... فإني لما فرغت من تسويد شرح كتاب منازل السائرين، وكان الكلام فيه، وفي شرح فصوص الحكم، وتأويلات القرآن الحكيم، مبنيا على اصطلاحات الصوفية، ولم يتعارفها أهل العلوم المنقولة والمعقولة، ولم تشتهر بينهم، سألوني أن أشرحها لهم... فتصديت للإسعاف بسؤالهم» [٩].

ومن ذلك يتضح أن هذا المعجم يتناول مجموعة محددة من المصطلحات التي وردت في الكتب الثلاثة المذكورة. ويبلغ عدد مصطلحات هذا المعجم ٦١٠ مصطلحا (٥١٠ في الجزء الأول منه، و١٠٠ في الجزء الثاني منه).

٣.١.١. ترتيب المعجم:

نظراً لأن هذا المعجم هو الأول الذي ألّفه الكاشاني، فإنه اختار أن يرتب أوائل المصطلحات على حروف الهجاء ليسير استعماله على القارئ. ولكنه أدرك، من ناحية أخرى، أن بعض المصطلحات الصوفية تتعدد مفاهيمها وتتنوع بحسب المقامات، فاضطر أن يعالج تلك الطائفة من المصطلحات بمنهجية موضوعية ويرتبها بطريقة رياضية. وهكذا أصبح هذا

المعجم يشتمل على نوعين من الترتيب، أو كما قال الكاشاني:

«... فكسرت هذه الرسالة على قسمين: قسم في بيان المصطلحات ما عدا المقامات، فإنها مذكورة في متن الكتاب مشروحة في جميع الأبواب. وقسم في بيان التفاريع المذكورة بأسرها والإشارة إلى ترتيبها وحصرها.

أما القسم الأول فمبوب تبويبا مبنيا على ترتيب حروف أبي جاد تسهيلا لمن يتفحص عنها، وتطلب واحدا واحدا منها. وأما القسم الثاني فمرتب على ترتيب الكتاب، مبين في كل قسم تفاريع كل باب باب»[١٠].

ولكي تتضح صورة الترتيبين المذكورين، نورد بعض الأمثلة من القسم (الجزء) الأول الذي رتبت فيه المصطلحات ترتيبا أبجديا على الأوائل (أو على ترتيب حروف أبي جاد، على حد تعبير الكاشاني). وهكذا نجد المصطلحات في باب الألف مرتبة ترتيبا أبجديا مثل: الاتحاد، الاتصال، الأحدية، الأحوال، الإحسان، إلخ. ثم يأتي باب الباء، وفيه المصطلحات: الأبواب، البارقة، الباطل، البدلاء، إلخ.، ثم يأتي باب الجيم، وهكذا دواليك.

وهذا هو الترتيب الذي تستخدمه معظم المعاجم المتخصصة اليوم، فيما عدا شيوع الترتيب الألفبائي للحروف بدلا من الترتيب الهجائي الذي كان أكثر شيوعا أيام الكاشاني.

أما القسم (الجزء) الثاني من المعجم فيحتوي على عشرة أقسام، وكل قسم يشتمل على عشرة مقامات، وكل مقام ينطوي على عشرة منازل. فالأقسام العشرة هي: ١. البدايات ٢. الأبواب ٣. المعاملات ٤. الأخلاق ٥. الأصول ٦. الأودية ٧. الأحوال ٨. الولايات ٩. الحقائق ١٠. النهايات. وهكذا

نستنتج أن الكاشاني يقصد بالأقسام هنا المجالات المختلفة في التصوف، أو الموضوعات المختلفة، إذا شئت.

وكل قسم من هذه الأقسام يشتمل على عشرة مقامات، كما ذكرنا، فالقسم رقم ٤. الأخلاق، مثلا، يشتمل على عشرة مقامات هي: ١. الصبر ٢. الرضا ٣. الشكر ٤. الحياء ٥. الصدق ٦. الإيثار ٧. الخلق ٨. التواضع ٩. الفتوة ١٠. الانبساط. وكل مصطلح من هذه المصطلحات يُعرّف عشر مرات في ضوء كل قسم من الأقسام المذكورة سابقا. فمصطلح الشكر، مثلا، له تعريف عام وعشر صور طبقا لكل قسم من الأقسام:

«الشكر: وأصله في هذا القسم: الشكر على المكاره كالشكر على المحاب.

وصورته في البدايات: الثناء على المنعم باللسان والجوارح.

وفي الأبواب: معرفة النِعم، ورؤيتها من المنعم.

وفي المعاملات: رؤيتها نعما ومننا من الله تعالى، ...

ودرجته في الأصول: رعاية أدب الحضور والشكر على نعمة القصد والعزم والفقر والغنى.

وفي الأودية: سلوك سلك العِلم.

وفي الأحوال: استحلاء البلاء. ..."

وهكذا، فكل مصطلح يُعرّف عشر مرات حسب مفهومه في كل قسم من الأقسام العشرة. وبهذا يشتمل الجزء الثاني من الكتاب مئة مصطلح،

وكل مصطلح يُعرّف عشر مرات، مرة في كل قسم من الأقسام.

وخلاصة القول إن الكاشاني في هذا المعجم قسّم مصطلحاته على نوعين:

. نوع عام له تعريف واحد فرتّب مفرداته ترتيبا أبجديا،

. ونوع خاص يتغير مفهومه شيئا ما من موضوع إلى موضوع، فرتبه موضوعيا وبطريقة رياضية.

٣.١.٢. منهجية المعجم:

وتقوم منهجية الكاشاني في تعريف المصطلحات في هذا المعجم على إعطاء تعريف مختصر لمفهوم المصطلح كما استُعمل في كتبه الثلاثة: شرح منازل السائرين، وشرح فصوص الحِكم، وتأويلات القرآن الحكيم. وعند الاقتضاء يُلحق التعريف بشرح أو شاهد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، أو من كلام العرب شعراً ونثراً. وهو في الأغلبية الغالبة من هذه المصطلحات يقدّم تعريفه الذي قد يختلف من حيث لفظه مع من سبقوه من أعلام التصوف، ولكنه يتفق معهم في المفهوم . ومن الأمثلة على ذلك:

ولو رجعنا لتعريف الخلوة في (معجم اصطلاحات الصوفية لابن عربي)[١١]، لوجدنا التعريف التالي:

«الخلوة: محادثة السرّ مع الحق حيث لا ملك ولا أحد سواه».

أما تعريفها في (معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني) فهو:

«الخلوة: محادثة السرّ مع الحق بحيث لا يرى غيره.. هذا حقيقة الخلوة

ومعناها. وأما صورتها فهي ما يتوسل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله والانقطاع عن الغير».

ومثال آخر تعريف (الذوق):

ابن عربي: «الذوق: أول التجليات الإلهية». **(في معجم اصطلاحات الصوفية لابن عربي)**

الكاشاني: «الذوق: هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي، فإذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود سُمّي : مشربا، فإذا بلغ النهاية سُمّي: رياً، وذلك بحسب صفاء السرّ عن لحوظ الغير» **(في معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني).**

٢.٣.المعجم الثاني: رشح الزلال في الألفاظ المتداولة بين أرباب الذوق والأحوال:

ويضم هذا المعجم ٢٦٩ مصطلحاً صوفياً، وقد ألّفه بعد معجمه الأول (اصطلاحات الصوفية). ويفصح الكاشاني عن غرض هذا المعجم في مقدمته حين يقول: «أجبتك أيها السائل اللحوح، في تخصيصك بهذا المسموح» [١٢]. ويفهم من هذا الكلام أن الكاشاني يزود الدارسين بمجموعة إضافية من المصطلحات أو من المعلومات الصوفية.

ويقول محقق (رشح الزلال) عن هذا المعجم:

«وهو لا يختلف كثيراً . من ناحية المنهج . عن كتابه اصطلاحات الصوفية ... إلا فيما ذكرت من قبل أنه توسع في عرض وشرح بعض

المصطلحات عما في كتابه السابق، وكذلك العكس، فأصبح الكتابان لهما، ضرورة واحدة، يكمل أحدهما الآخر، ولا يستغنى عن أحدهما دون الآخر، كما أنه أتى ببعض المصطلحات التي يخلو منها الآخر» (١٣).

وفي الوقت الذي نتفق مع المحقق الفاضل في ما قاله بشكل عام، فإننا نود أن نثير نقطتي اختلاف بين المعجمين:

الأولى، تتعلق بترتيب المصطلحات؛ ففي حين اعتمد معجم (اصطلاحات الصوفية) الترتيبين الأبجدي والموضوعي، تبنى معجم (رشح الزلال) الترتيب المجالي. فقد رتّب الكاشاني مصطلحات هذا المعجم حسب انتمائها إلى المجالات المفهومية التي تشكّل المنظومة المفهومية للتصوف. فرتّب المصطلحات التي تنتمي إلى مجال مفهومي واحد قرب بعضها، لكي يساعد القارئ على فهم القاسم المشترك بينها وكذلك الفروق الجوهرية الموجودة بينها. فمثلا رتب المؤلف المصطلحات التالية على النحو الآتي:

. الهاجس ، الخاطر ، الإرادة ، الهمّ ، القصد ، النية

. الطريق ، الوقت ، الأدب ، المقام ، الحال

. التجلي ، المحاضرة ، المكاشفة ، المشاهدة ، المحادثة ، المسامرة

. العنقاء ، الورقاء ، العُقاب ، الغراب ، الشجرة ، السمسمة ، الدرة البيضاء ، الزمردة

فمصطلحات كل مجموعة ليست مرتبة على حروف المعجم، وقد لا تنتمي إلى موضوع واحد، ولكنها تنتمي إلى مجال مفهومي واحد أو مجالات

مفهومية متجاورة في منظومة مفاهيم التصوف. وتحديد موقع المفهوم في المجال المفهومي ومعرفة المفهوم الذي قبله وبعده يساعدنا على التعرف عليه بطريقة أيسر وأسرع.

والثانية، في حين أن الكاشاني كان يصوغ تعاريفه في معجم (اصطلاحات الصوفية) بنفسه، فإنه في معجم (رشح الزلال) يعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على المصطلحات التي استعملها ابن عربي في كتبه المختلفة، مثل الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، ومعجم اصطلاحات الصوفية ، فيذكر الكاشاني سطراً أو سطرين من كلام ابن عربي في بداية تعريف المصطلح ثم يكمل هو ما بقي حتى يصل بالمدخل إلى صفحة أو صفحتين أو يزيد، كما لاحظ محقق المعجم(١٤).

ومن الأمثلة على ذلك تعريفَيْ ابن عربي والكاشاني لمصطلح (المقام) الذي يعني لدى الصوفية، بصورة عامة، منزلة من المنازل أو درجة من الدرجات العليا، والتي لا يبلغها إلا من كابد في طريق مجاهدة النفس:

ابن عربي: «وأما المقام، فعبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام». (في معجم اصطلاحات الصوفية)

الكاشاني : «المقام: عبارة عن استيفاء حقوق المراسم الشرعية مما تعين عليه بأمر الشارع من المعاملات، وصنوف العبادات على التمام والكمال، بحيث لا يفوته شرط من شروطها ولا لازم من لوازمها». (في معجم رشح الزلال).

واعتماد الكاشاني في هذا المعجم على المصطلحات التي كان

يستعملها ابن عربي ذو دلالات كثيرة أهمها أن مصطلحات ابن عربي صارت آنذاك شائعة في الأدب الصوفي، وأصبحت لها الغلبة على غيره من المصطلحات. وأن الكاشاني يريد أن ينطلق في معجمه هذا من الاستعمال الشائع المكتوب، لأن المصطلحية تتعامل ، عادة ، مع اللغة المكتوبة.

وهذا لا يعني أن الكاشاني اقتصر في مصادره على كتابات ابن عربي، بل استخدم كتب التصوف الأخرى كذلك، ولكن مؤلفات ابن عربي كانت أكثر شيوعا، ولهذا أَكْثَرَ من الرجوع إليها واجتهد في تعريف مصطلحاتها. ومن الأمثلة على رجوعه إلى المصادر الأخرى هذان المدخلان:

«المريد: هو المجرد عن الإرادة. قال قدس سره في الفتح المكي: المريد من انقطع إلى الله تعالى عن نظر، واستبصار، وتجرد عن إرادته... وقال أبو حامد الغزالي : هو الذي صحّت له الأسماء».

«جمع الجمع: عند البعض: الاستهلاك بالكلية في الله... وعنده، قدّس سرّه [أي ابن عربي]: أن يجمع ماله ومالك عليه فيرجع الأمر كله إليه».

ومن ناحية أخرى، فإن الكاشاني لم يتقيد تماما بطريقة ابن عربي في تعريف المصطلحات ولا بعباراته. ومن الأمثلة على ذلك تعريف (السالك):

(**ابن عربي**: «السالك: هو الذي مشى على المقامات كلها بحاله لا بعلمه، فكان العلم له عَيْنا» في معجم اصطلاحات الصوفية لابن عربي)

الكاشاني: «السالك: هو السائر إلى الله، المتوسط بين المريد والمنتهي، ما دام في السير» (في معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني)

الكاشاني: «السالك: هو الذي مشى على المقامات بحاله، لا بعلمه وتصوره، فكان العلم الحاصل له عن طريق الخبر والاستدلال في مسافة عينا، يأبى عن ورود الشبه المضلة عليه».(في معجم رشح الزلال للكاشاني)

٣.٣. المعجم الثالث: لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام

صنّف الكاشاني معجمه الثالث في أواخر حياته، وهو آخر كتبه على الإطلاق، بعد أن نضجت تجربته الصوفية واكتملت خبرته المعجمية والمصطلحية. وعلى الرغم من أن الكاشاني استعار عنوان هذا المعجم من كتاب للشيخ ابن عربي، تيمناً واعتزازاً به، فإن الفرق بين العملين شاسع. ففي حين يعدّ كتاب ابن عربي مجرد رسالة صغيرة في بعض إشارات الصوفية قسّمها إلى موضوعات كالسماع وغيره، فإن كتاب الكاشاني معجم موسوعي مختص كبير «لا نظير له» على حد قول حاجي خليفة في كشف الظنون[١٥]. وقد نُشر معجم الكاشاني هذا في مجلدين بتحقيق جيد اضطلع به الأستاذ سعيد عبد الفتاح[١٦].

١.٣.٣. نطاق المعجم:

يختلف هذا المعجم من حيث نطاقه عن المعجمين السابقين. فهو لم يستقِ مادته من عدد محدود من الكتب، كما هو الحال في المعجم الأول. ولم يستمد مصطلحاته من عدد محدود من المتصوفة، كما هو الحال في المعجم الثاني. وإنما اشتملت مداخله على جميع المصطلحات التي يستعملها كبار المتصوفة في مؤلفاتهم المختلفة. ولهذا جاء هذا العمل معجماً موسوعياً شاملاً يضم ١٦٥٧ مصطلحاً، وهو أكبر معجم متخصص في التصوف حتى الآن.

ويقول الكاشاني في مقدمته:

«فإني لما رأيت كثيراً من علماء الرسوم، ربما استعصى عليهم فهم ما تتضمنه كتبنا وكتب غيرنا من النكت والأسرار، التي يشير إليها المحققون العالمون بالله من أكابر الصوفية... أحببت أن أجمع هذا الكتاب مشتملا على شرح ما هو الأهم من مصطلحاتهم...» (١٧).

٢.٣.٣. ترتيب المعجم:

لم يرتب الكاشاني مداخل هذا المعجم طبقاً للترتيب الأبجدي الذي اتبعه في القسم الأول من معجمه (اصطلاحات الصوفية)، ولا طبقاً للترتيب الموضوعي الذي تبناه في القسم الثاني منه، ولا طبقاً للترتيب المفهومي الذي اعتمده في معجمه الثاني (رشح الزلال)، وإنما رتب جميع مداخله ترتيباً ألفبائياً (وليس أبجدياً)، وهو الترتيب الملائم للمعاجم الموسوعية. فقد قسّم الكتاب حسب حروف المعجم إلى أبواب: باب الألف، باب الباء، باب التاء، ...إلخ. ثم قسّم المداخل في كل باب حسب الحرف الثاني على التوالي.

٣.٣.٣. منهجية المعجم:

نظراً لضخامة المادة التي يضمها هذا المعجم، فقد استخدم الكاشاني في تعاريفه كثيراً من المترادفات وشبه المترادفات، كما استخدم الإحالات على المداخل الأخرى بكثرة، وذلك توخياً للاختصار وتجنباً للتكرار. ومن الأمثلة على ذلك:

«**الأديب**: يعنون به العارف الرباني، ... وسيأتي تعريفه في باب العين».

«**العارف**: مَن أشهده الحق نفسه، وظهرت عليه الأحوال، والمعرفة حالة... وقد يعنى بالعارف من عرف نفسه فعرف ربه...».

«**اتحاد الذات بالأسماء والصفات**: ويقال : توحّد الذات، ويُسمى: اتحاد الذات بالوحدانية، وسيأتي في باب الواو».

«**وحدة الوجود**: يُعنى به عدم انقسامه إلى الواجب والممكن».

٤.٣.٣. المعجم ، والموسوعة، والمعجم الموسوعي:

قد يسبب وصفنا لهذا المعجم بأنه معجم موسوعي مختص شيئاً من اللبس يحتم علينا التوضيح. فالفرق بين المعجم والموسوعة من حيث اختيار المداخل ينحصر في اشتمال الموسوعة على أسماء الأعلام من أشخاص وأماكن وأعمال أدبية وغيرها في حين يخلو المعجم اللغوي من أسماء الأعلام(١٨). ومن حيث المعالجة، تعمل الموسوعة على معالجة الحقائق معالجة شاملة في حين أن المعجم يعمل عادة على تعريف المداخل دون التوسع فيها. ومن حيث المجال تغطي الموسوعة جميع فروع المعرفة في حين يختار المعجم مداخله من اللغة العامة. ولكن ظهرت موسوعات متخصصة في فرع من فروع المعرفة كموسوعة العلوم الطبية ، أو موسوعة العلوم اللغوية مثلا(١٩).

ويتحتم علينا بعد ذلك التفريق بين الموسوعة والمعجم الموسوعي. فعلى الرغم من أن الموسوعة والمعجم الموسوعي قد يتبعان كلاهما الترتيب الألفبائي، فإنهما يختلفان من حيث معالجة المواد، فالمعلومات تتجمع في الموسوعة تحت موضوعات عامة في حين نجدها موزعة تحت عدد كبير من المداخل المتصلة بها في المعجم الموسوعي(٢٠).

وفي ضوء ذلك يمكن القول إن معجم (لطائف الإعلام في إشارات أهل

الإلهام) للكاشاني هو معجم موسوعي مختص في التصوف الإسلامي ولا يقتصر على تعريف المصطلحات فقط وإنما يشتمل كذلك على الأسماء مثل أسماء الله الحسنى، ويعالج مادته بصورة أعمق وأشمل من المعجم غير الموسوعي.

٤. الخلاصة:

وخلاصة القول إن معاجم الكاشاني الثلاثة لا تدلنا على سعة معرفته في التصوف فحسب وإنما كذلك على إسهامه الكبير في تطوير المعجمية والمصطلحية. فقد أعطى في هذه المعاجم الثلاثة المثل الواضح على المنهجية المصطلحية الموضوعية القائمة على تجميع المصطلحات الصوفية من مظانها أي من المؤلفات المختصة الواسعة الانتشار والمعتمَدة في الاستعمال. وبعبارة أخرى الاعتماد على استعمال أهل الاختصاص في التوصل إلى المفاهيم التي تعبّر عنها تلك المصطلحات. ومن ناحية ثانية، استخدم الكاشاني في معاجمه الثلاثة ثلاثة أنواع من الترتيب: الهجائي والموضوعي والمفهومي، وهي الأنواع المستعملة حتى اليوم في المصطلحية الحديثة، مما يدل على بعد نظره في علم المصطلح وصناعته.

الهوامش

(١) Helmut Felber, Terminology Manual (Paris: UNESCO, ١٩٤٨) pp. **١-٣**

وللاطلاع على مصطلحات علم المصطلح انظر:

. مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث (دمشق: المجمع العلمي العربي، ١٩٦٥ طبعة ثانية) وكذلك:

. علي القاسمي ، مقدمة في علم المصطلح (بغداد: الموسوعة الصغيرة، ١٩٨٥) وطبعة ثانية: (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٨٧).

(٢) أحمد الشرقاوي إقبال، معجم المعاجم (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٧/١٩٨٧).

(٣) عبد الرزاق الكاشاني، مصطلحات الصوفية، تحقيق: د. عبد الخالق محمود (القاهرة: دار المعارف، ط ٢: ١٩٨٤) ص ٣١-٣٢.

(٤) عبد الرزاق الكاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، تحقيق سعيد عبد الفتاح (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٦) ١: ١٧.

(٥) المرجع السابق

(٦) فضل الله الهمداني، جامع التواريخ، نقله إلى العربية: محمد صادق نشأت، ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد(القاهرة: دار إحياء الكتب العربية،ب ت) مج ٢ج ١ ص ٢٧٥، وكذلك:

شمس الدين الذهبي، دول الإسلام (حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط٢: ١٣٦٤-١٣٦٥ هـ) ج ٢ص١٢١ .

(٧) حاجي خليفة، كشف الظنون (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٢/١٩٨٢) ٢ : ١٥٥٢.

(٨) عبد الرزاق الكاشاني، مصطلحات الصوفية، تحقيق: د. محمد كمال جعفر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١) وكذلك

. عبد الرزاق الكاشاني، اصطلاحات الصوفية، ضبطه وعلّق عليه: توفيق فوزي الجر (دمشق: الحكمة، ١٩٩٥).

(٩) عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق: د. عبد العال شاهين (القاهرة: دار المنار، ١٤١٣/١٩٩٢) ص ٤٦.

(١٠) المرجع السابق، ص ٤٧.

(١١) محيي الدين بن عربي، معجم مصطلحات الصوفية، حققه بسّام عبد الوهاب الجابي (دمشق: دار الإمام مسلم، ١٩٩٠) وكذلك:

محيي الدين بن عربي، اصطلاحات الصوفية، إعداد: د. عبد الحميد صالح حمدان (القاهرة : مكتبة مدبولي، ١٩٩٩).

(١٢) عبد الرزاق الكاشاني، رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال، تحقيق: سعيد عبد الفتاح (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث) ص٣٤.

(١٣) المرجع السابق، ص ٢٣.

(١٤) المرجع السابق، ص ٢٢.

(١٥) حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢: ١٥٥٢.

(١٦) عبد الرزاق الكاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، تحقيق سعيد عبد الفتاح (القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٩٦).

(١٧) المرجع السابق، ١: ١٠٥.

(١٨) تشتمل المعاجم العربية التراثية على أسماء الأعلام. ولكن المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية اتبع المنهج العلمي الحديث من حيث خلوه من أسماء الأعلام.

(١٩) يفضّل بعض الباحثين إطلاق اسم (دائرة المعارف) على الموسوعة التي تتناول جميع فروع المعرفة، واسم (الموسوعة) على الموسوعة المختصة في فرع واحد.

(٢٠) علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم (الرياض: جامعة الرياض، ط٢: ١٩٩١) ص ٤٣-٤٦.